

دلالة الصمت في الخطاب الصوفي بين دواعيه وإكراهاته، نماذج مختارة

د. كربوش إبراهيم

kerbouche.brahim@univ-guelma.dz

جامعة 08 ماي 1945 قالمة - الجزائر

الملخص:

تتناول هذه المداخلة قضية قديمة حديثة: قديمة لأن الكثير من الحكماء والأدباء تحدثوا عن الصمت وفضيلته، وتناولوا في المقابل الكلام ومزاياه وعيوبه. حديثة لأن الدراسات النقدية ما زالت تنقب وتبحث في دلالة الصمت وأبعاده ودواعيه، وما يترتب عنه، وسياقاته، وجمالياته، وغير ذلك. والتراث العربي زاخر بمثل هذا المواضيع. وينصب اهتمامنا في هذه المداخلة على دلالة الصمت عند السادة الصوفية، بحكم أن التجربة الصوفية تجربة فريدة من نوعها، تجربة ذوقية روحية تتعالى على الواقع، تعتمد على الباطن في مقابل الظاهر، وأن كشفاتهم ما هي إلا أسرار يجب الاحتفاظ بها لدواع كثيرة، أشار إليها بعض الصوفية كالقشيري، والجنيد، وابن عربي وغيرهم. فالكلام عن مواجدهم أمر يوقعهم في المكاره، ويجلب إليهم المتاعب من طرف السلطان، ومن أعدائهم الألداء علماء الظاهر، ويكفي الإشارة إلى الحلاج والسهروردي، وما لحق بهما سجن وقتل. فالصوفي عندما يستغرق في تجربته وملابساتها، يرى عوالم لم يرها من قبل، وتنتابه مشاعر لا عهد له بها، وتحت وطأة هذه الأحوال وسيطرتها عليه، أول شيء يصدده هو اللغة التي لا تسعفه في مثل هذه المواقف الجديدة الغريبة، فيقع في الشطح، ولهذا يلجأ الصوفية إلى الصمت، أو إلى الرمز والإشارة في حالات أخرى، ومن هنا نستطيع أن نقول: ما دلالة الصمت عندهم؟ وهل هو خيار أم إكراه؟.

الكلمات المفتاحية: الصمت، التجربة الصوفية، اللغة الصوفية، الإكراهات، الخيارات.

Abstract:

This intervention deals with an old and recent issue: an old one, because many wise men and writers talked about silence and its virtue, and in turn, they dealt with speech, its advantages and disadvantages. Modern because critical studies are still excavating and looking into the significance of silence, its dimensions, its motives, its consequences, its contexts, its aesthetics, and so on. The Arab heritage is replete with such topics. Our interest in this intervention

focuses on the significance of silence among the Sufi masters, since the Sufi experience is a unique experience of its kind, a spiritual taste experience that transcends reality, dependent on the inner as opposed to the apparent. And that their revelations are nothing but secrets that must be kept for many reasons, referred to by some Sufis such as Al-Qushari, Al-Junaid, Ibn Arabi and others. Speaking about their prowess is a matter that puts them in trouble, and brings them trouble on the part of the Sultan, and among their staunch enemies are the outward scholars, and it is sufficient to refer to Al-Hallaj and Al-Suhrawardi, and what has befallen them is imprisonment and murder. When the mystic is immersed in his experience and its circumstances, he sees worlds that he has not seen before, and feelings that he is not entrusted with, and under the weight of these conditions and their control over him, the first thing that shocks him is the language that does not help him in such strange new situations, so he falls into the flat, and for this he resorts Sufism refers to silence, or to symbol and reference in other cases, and from here we can say: What is the significance of silence for them? Is it a choice or a compulsion?

Keywords: Silence, Sufi experience, Sufi language, compulsions, choices.

مقدمة:

تعددت أشكال التواصل وتنوعت، فلم تعد اللغة هي الأداة الوحيدة في التواصل، فهناك أشكال أخرى تبه إليها الجاحظ: وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ، خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى نصبة¹. ويبيّن أن أصناف الدلالات تتفاوت على حسب سياقاتها وظروفها، فقد تتقدم الإشارة على الصوت. وحين تعرض النصبة قال: ومتى دل الشيء على معنى، فقد أخبر عنه، وإن كان صامتاً، وأشار إليه وإن كان ساكناً². ففنون التواصل إذا لا تنحصر في اللغة وإن كانت هي الأهم. وللجاحظ موقف واضح من الصمت، وكانت آراؤه ثابتة ودقيقة. وقد دعا إليه من خلال الشواهد التي تناولها في كتابيه البيان والتبيين والحيوان. يقول الجاحظ: وإنما حثوا على الصمت لأن العامة إلى معرفة خطأ القول، أسرع منهم إلى معرفة خطأ الصمت. ومعنى الصامت في صمته أخفى من معنى القائل في قوله، وإلا فإن السكوت عن قول الحق في معنى النطق بالباطل. ولعمري إن الناس في الكلام لأسرع، لأن في أصل التركيب أن الحاجة إلى القول والعمل أكثر من الحاجة إلى ترك العمل، والسكوت عن جميع القول. وليس الصمت كله

¹ - الجاحظ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة- مصر، ط2، (دت)، 76/1.

² - المرجع نفسه، 82/1.

أفضل من الكلام كله، ولا الكلام كله، أفضل من السكوت كله. بل قد علمنا أن عامة الكلام، أفضل من عامة السكوت³. فالكلام عنده أصل، والسكوت فرع عنه.

فالصمت في لسان العرب: صَمَتَ يَصْمُتُ صَمْتًا وَصُمْتُتًا...أصمت أطلال السكوت...التصميت أيضا السكوت. من ذلك صمت الرجل، إذا سكت...ومنهم قوله..(لقيت فلانا ببلدة إصمت) وهي الفقر التي لا أحد فيها...ويقال (ما له صامت ولا ناطق) فالصامت الذهب والفضة. ويقال للرجل إذا اعتقل لسانه فلم يتكلم: أصمت⁴. فالصمت يحمل معنى السكوت بصفة عامة. وقد وردت في القرآن الكريم مرة واحدة، في قوله تعالى: ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتهم أم أنتم صامتون﴾ (الأعراف الآية: 193).

مفهوم الصمت عند السادة الصوفية: المعروف عن الصمت أنه يحمل معنى دينيا أخلاقيا، وقد وردت آيات وأحاديث نبوية وحكم وأخبار، تدعو إلى حفظ اللسان، لأنه يورد بصاحبه إلى المهالك في دنياه وآخرته. وتجنب آفاته، ففي حديث الرسول صلى الله عليه وسلم إشارة واضحة: ((ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت))⁵. تشير إلى فضائل الصمت، وتبين الحكمة منه، وأنه من صفات العقلاء والحكماء من الناس. وقال الأستاذ(أبو علي الدقاق) رحمه الله: الصمت سلامة، وهو الأصل وعليه ندامة إذ ورد عنه الزجر، فالواجب أن يعتبر في الشرع، والأمر، والنهي، والسكوت في وقته، صفة الرجال كما أن النطق في موضعه من أشرف الخصال. وقال من سكت عن الحق فهو شيطان أخرس. والصمت من آداب الحضرة قال تعالى: ﴿وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون﴾ (الأعراف 204). وكمن بين عبد سكت تصاونا عن الكذب والغيبة، وبين عبد سكت لاستيلاء سلطان الهبة عليه⁶. ونستطيع أن نقف من خلال هذا النص دواعي الصمت: فهو صيانة اللسان من الكذب والغيبة، وهما من أنكر الصفات وأبعدها عن الإنسان المؤمن، فالمؤمن لا يمكن أن يكون كاذبا، كما لا يمكن أن يكون مغتابا، وقد عرض القرآن الكريم هذه الصفة في أبشع صورة: ﴿ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدهم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه﴾ (الحجرات 49). والداعي الثاني هو غلبة استيلاء سلطان الهبة عليه، فالصوفي عندما يكشف له تنتابه حالات من الوجد، فتحكم سيطرتها عليه، فيرى في عالم الغيب ما

³ - المرجع السابق، 271/1.

⁴ - ابن منظور، لسان العرب، ، تح: أمين محمد عبد الوهاب وآخر، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، ط3، 1999، ص: 401/4، 400.

⁵ - القشيري، الرسالة القشيرية، دار السلامة للطباعة والنشر والترجمة، القاهرة- مصر، ط5، 2014، ص: 69.

⁶ - المصدر نفسه، ص69.

يرى، فيعجز لسانه عن النطق، ويصاب بالخرس. لأنه في موقف تسيطر عليه آيات الجلال والعظمة. فلا مكان للكلام هنا، ولا داعي للنطق، فهي حالة خاصة يعيشها ويتذوقها. فلا الكلام يحويها، ولا العبارة تستطيع أن تضمها، وتفصح عن معناها، لأنه إذا اتسعت الرؤية ضاقت العبارة. وقال لي: العبارة ستر، فكيف ما نذبت إليه⁷. أما القول الأول فمنطقي تماماً إذ كلما ازدادت الرؤيا سعة، ازدادت اللغة ضيقاً بالفعل لأنها أعجز من أن تحمل ثقل المعاني القادمة من وراء الغيب. وأما القول الثاني، وخلاصته أن اللغة حجاب يحجب الحقيقة، فلا يسعك استيعابه إلا إذا استوعبت مذهب النقي، وخلاصة هذا المذهب، هو أن ترى لا أن تعرف. والرؤيا لا تحتاج إلى لغة قط، وما ذاك إلا لأنها صمت مطبق⁸. ولهذا يعد الصمت من أخلاق العارفين، فعندهم ترك الطلب من حيث هو، فالسكوت تحت مجاري الأقدار أفضل عند العارفين من التضرع والابتهاال⁹. وعن أحمد بن الفتح قال: سمعت بشر بن الحارث يقول إذا أعجبك الكلام فاصمت، وإذا أعجبك الصمت فتكلم¹⁰. وذلك حتى يخالف النفس، وقد دعوا إلى مخالفتها. وهناك داع آخر أشار إليه القشيري: وربما يكون السكوت يقع على المتكلم تأدياً له، لأنه أساء أدبه في شيء. وربما يقع السكوت على المتكلم، لأن في القوم من هو أولى منه بالكلام¹¹. قد قسم ابن عربي الصمت: الصمت قسمان: صمت باللسان عن الحديث لغير الله تعالى مع غير الله تعالى جملة واحدة، وصمت بالقلب عن خاطر يخطر له في النفس في كون من الأكوان، فمن صمت لسانه، ولم يصمت قلبه خف وزره، ومن صمت لسانه وقلبه، ظهر له سره وتجلي له ربه، ومن صمت قلبه ولم يصمت لسانه، فهو ناطق بلسان الحكمة، ومن لم يصمت بلسانه ولا بقلبه، كان مملكة للشيطان ومسخرة له، فصمت اللسان من منازل العامة وأرباب السلوك، وصمت القلب من صفات المقربين أهل المشاهدات، وحال صمت السالكين السلامة من الآفات، وحال صمت المقربين مخاطبات التأنيس، فمن التزم الصمت في الأحوال كلها، لم يبق له حديث إلا مع ربه، فإذا انتقل الحديث مع الأغيار إلى الحديث إلى ربه، كان نجياً مؤيداً إذا نطق، نطق بصواب¹².

⁷ - النقي، لمواقف والمخاطبات، تح: آرثر أبري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985، ص: 115.

⁸ - يوسف سامي اليوسف، مقدمة للنقي، دار الينابيع، دمشق، 1997، ص: 57.

⁹ - المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، موسوعة التصوف الإسلامي، القاهرة، دار الكتب المصرية، ص: 716.

¹⁰ - أبو القاسم عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية، ص: 70.

¹¹ - المصدر نفسه، ص: 71.

¹² - سيزا قاسم، عن الصمت والأدب، مجلة فصول، العددان: 81، 82، ربيع، صيف، 2012، ص: 509.

التجربة الصوفية: هي تجربة ليست ككل التجارب، لما لها من الخصائص لا تجدها في غيرها، فهي ذوقية، روحية، فردية: (عبر بلسانك عن حالك، ولا تكن بكلامك حاكيا أحوال غيرك)¹³. ذوقية لأنها بعيدة كل البعد عن العقل، لأن الطريق التي تسلكها الصوفية والنتائج التي تنتهي إليها غالبا ما تتعارض مع المنهج العقلي الذي يعتمد على الحواس، والاستدلال والاستقراء المنطقيين، ويلمح ابن عربي إلى هذه المفارقة بقوله: (ونحن ما نعتمد في كل ما نذكره إلا على ما يلقي الله عندنا من ذلك لا على ما تحمله الألفاظ من وجوه) وعلى ما في العبارة من إيجاز واختصار، إلا أنها تلخص قضية مهمة، ما زالت ماثلة، وعليها يقوم جانب الصراع الذي لا ينتهي بين الصوفية والفقهاء وعلماء الظاهر¹⁴. وهي كذلك روحية لأن هدف الصوفي هو الوصول إلى الحق، أو المطلق، والاتحاد به، ولا يصل الصوفي غلى هذا الهدف إلا بمجهود شاق وطويل، يركز على إماتة الرغبات، وكسر شره النفس، والوان من الرياضة رسمها الصوفية ونظموها وسموها طريقا، وفي قمة الطريق يجد الصوفي بغيته، فيطلع على ما لا يمكن أن يطلع عليه غيره، ويشاهد من الوان الجمال والجلال ما يعجز عن تصويره¹⁵. وهي فردية ذاتية، ومعنى ذلك أنها ليست مأخوذة عن طريق الرواية أو الحكاية لأقوال العلماء أو السابقين، بل إنها معرفة خاصة بصاحبها، وقد ألفت في قلبه إلقاء، بحيث لم يحصلها عن طريق التعلم والتلقين أو قراءة الكتب أو الوسائل المعتادة، وقد كان بعض الصوفية كابن مدين التلمساني إذا ذكرت أمامه أقوال العلماء أو اجتهادات السابقين أو أفكار أصحاب الفكر يقول: ما نريد نأكل قديدا... ايتوني بلحم طري. أي بعلم وارد من عين المنة والجود الإلهي¹⁶. وفي هذا يقترح william james تجنبنا للمناقشات اللفظية أربع علامات إذا وجدت في تجربة أصبحت مبررا لتسميتها صوفية:

1- الاستعصاء على الوصف: فصاحب التجربة الصوفية يقول دائما إنها تستعصي على التعبير، ولا استطاع وصف تفاصيلها بالكلمات، ويترتب على هذا أن قينتها يجب أن تجرب تجربة مباشرة، والحالات الصوفية بهذه الخاصية أقرب إلى حالات الإحساس منها إلى حالات التفكير.

¹³ - ناجي حسين جودة، المعرفة الصوفية، دار الهادي للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ط1، 2006، ص: 142، 143.

¹⁴ - أمين يوسف عودة، تأويل الشعر وفلسفته عند الصوفية، عالم الكتب الحديث، إربد، ط1، 2008، ص: 69.

¹⁵ - عبد الحكيم حسان، التصوف في الشعر العربي الإسلامي، دار العرب للدراسات والنشر والترجمة، 2010، ص: 34.

¹⁶ - المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، موسوعة التصوف الإسلامي، ص: 573.

2- القيمة التجريدية: ومع أن الحالات الصوفية أقرب إلى حالات الاحساس منها إلى الحالات الفكرية فإنها تبدو لمجربها حالات معرفة، إنها حالات إدراك لأعماق الحق غير مختلطة بالذكاء.

3- الوقتية: فالحالات الصوفية لا يمكن أن تبقى مدة طويلة، ويظهر أن نصف الساعة أو الساعة أو الساعتين هي الحد الذي تتلاشى التجربة بعده.

4- السلبية: مع أن بدايات الحالات الصوفية ربما تسهل بحدوث أعمال إرادية، كتثبيت الانتباه، أو لإجراء تمرينات جسيمة، أو أعمال أخرى يصفها المتصوفة، فإنه حين يبدأ الوعي الخاص بالتصوف يشعر الصوفي كأن إرادته غائبة، وأحيانا يشعر كأنه في قبضة قوة عليا¹⁷. وهذا قريب جدا مما عرفه أهل التصوف.

اللغة الصوفية: اللغة الصوفية لغة خاصة، بل في غاية الخصوصية، لأنها تختلف عن لغة التواصل العادية، لأنها تقوم على الكشف، تلمح ولا تصرح، تعتمد الإشارة دون العبارة، حتى قيل علمنا هذا إشارة، فإذا صار عبارة جفا (خفي)¹⁸. ويقول النقي في هذا المعنى: وقال لي إذا جئني فألق العبارة وراء ظهرك، وألق المعنى وراء العبارة وألق الوجد وراء المعنى¹⁹. ولهذا قيل: لو أراد الصادق أن يصف ما في قلبه ما نطق به لسانه²⁰. لأنها تجربة تقوم على الذوق أساسا، ومن ثم لا يمكن نقلها عن طريق اللغة، فهناك أمور لا يمكن إدراكها وفهمها إلا إذا ذقتها، فالإنسان لا يمكنه معرفة حلاوة العسل إلا إذا ذاقه، ولا يعرف مرارة العلقم إلا إذا ذاقه، ولا يمكنه معرفة الوجد والشوق إلا من عاشه، وفي ذلك يقول الشاعر:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصباية إلا من يعانيتها

فالتجربة الذوقية تستمد دليلها منها لا من الخارج. ولهذا يصعب نقلها.

واللغة شرط بناء التجربة، وأداة تحقيقها، وطريقة وعيها بذاتها في تميزها وخصوصياتها... فإن علاقة الصوفية باللغة تبقى محكومة بمفارقة أساسية لا سبيل إلى تجاوزها، ذلك أن اللغة بخصوص هذه التجربة تتبدى شرطا وعائقا في آن واحد معا. ولا شك أن هذه المعضلة قد أرقت الوعي الصوفي، وجعلته يصطدم بها، إذ وجد نفسه في نزوعه إلى المطلق، واقعا في شركها، ومقيد بحدودها. فكيف له، والحالة هذه، أن يفكر من داخلها، وأن يفلت من

¹⁷ - عبد الحكيم حسان، التصوف في الشعر العربي الإسلامي، ص: 33، 34.

¹⁸ - أبو نصر السراج الطوسي، اللمع، تح: محمد أديب الجادر، دار الفتاح للدراسات والنشر، ط1، 2016، ص: 314.

¹⁹ - النقي، المواقف والمخاطبات، ص: 154.

²⁰ - المعرفة الصوفية، ناجي حسين جودة، ص: 154.

إسارها، ويعلو عليه في اللحظة نفسها؟. إذا كانت شرطا لا بد منه، كما تقدم، فكيف يمكن له أن يصل من داخل أوضاعها المتناهية، إلى قول ما لا يتناهى؟ فكيف يتسنى له، في خضوعه لها أن يبارح محدوديتها، وينفك من أغلالها²¹. وهذا ما يشكل لحظة انسداد يقف الصوفي إزاءها موقفاً تطغى فيه الدهشة والحيرة.

بين قطعية الاشتراط وصلابة العائق ما دفع بالنشاط الصوفي إلى تجاوز شرط اللغة نسبياً، من داخل حدودها وأوضاعها، وهو ما يتبدى في ممارسة نوعاً من العنف عليها، بضغطها واعتصارها، لا نتاج لغة ثانية في باطن اللغة، تجمع بين قدرة الكلام وبلاغة الصمت، وتوحد بين الإبلاغ والامتناع، وتلاقي بين إرغام الكلام على الصمت، وإرغام الصمت على الكلام، وتحققهما معا في اللحظة²². إن مصدر التعقيد الأساسي في لغة المتصوفة هو عمق التجربة نفسها، لأن هذه التجربة تقوم أساساً على قطع العلائق واليأس مما في أيدي الخلائق كما يقولون، لأن جسر التواصل والتواضع الذي هو اللغة المؤسسة لم يعد قادراً على تأدية الوظيفة، ولذلك يسعى المتصوف إلى مد جسور بديلة يتمكن من خلالها من إقحام المتلقي في تجربته أو على الأقل في جزء من تجربته، ولا يسعفه في ذلك إلا الإشارة والرمز والإبهام²³.

المعروف عن الصوفية إطلاقاً أنهم قوم لا يتكلمون بلسان عموم الخلق، ولا يخوضون فيما يخوض فيه الناس من مسائل علم الظاهر، وإنما يتكلمون بلسان الرمز والإشارة - إما ضناً بما يقولون على من ليسوا أهلاً له، وإما لأن لغة العموم لا تفي بالتعبير عن معانيهم، وما يحسونه في أذواقهم ومواجيدهم²⁴. وهذا ما يؤكد النفر في مواقفه: وقال لي كل ما رأيته بعينك وقلبك من ملكوتي الظاهر والخفي فاشهدتك تواضعه لي، وخضوعه لبهاء عظمي لمعرفة أثبتتها لك فتعرفها بالأشهاد لا بالعبارة²⁵.

إن اللغة مهما كانت مرونتها ومستواها تبقى عاجزة أمام ثورة الصمت التي تحيل الوجود إلى كلام أبدي غير منطوق، وليس المقصود من الصمت هو الصمت عن الكلام المنطوق، وإنما هو صمت الفكر. ذلك صمت المبدع الذي يقبر فيه العقل كما يقول النفري، وتحل معه السكينة، ويعيش المتصوف لحظة الخلود الأبدية التي تتلاشى

²¹ - وفيق سليطين، الشعر والتصوف، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية - سورية، ط1، 2013، ص: 15.

²² - المصدر نفسه، ص: 16.

²³ - حميدي خميسي، مقالات في الأدب والفلسفة والتصوف، دار الحكمة، الجزائر، 2005، ص: 87، 88.

²⁴ - ابن عربي، فصوص الحكم، تع: أبو العلا عفيفي، انتشارات الزهراء، إيران، 1370هـ، ص: 15.

²⁵ - النفري، المواقف والمخاطبات، ص: 91.

معها كينونة الزمن²⁶. فإن الصوفي يعيشها محترقا بحر نارها، أو بزمهرير بردها، فلا يسعه عند ذاك إلا الصمت أو الدهشة²⁷. ومن عرف الله تعالى، انقطع، بل خرس وانقطع. وتسقط أسئلة العقل، إذ إن من عرف الحقيقة في التوحيد سقط عنه: لم؟ وكيف؟. وعن علوم المكاشفة يقول الغزالي: وهذه العلوم لا تسطر في الكتب²⁸. فالمعاني التي يصل إليها الصوفي تقف اللغة عاجزة تماما عن استيعابها.

خيارات الصمت: إن الصمت أو كما يسميه البعض الخرس في الحقيقة هو أحد علامات على التجربة الصوفية ودليل صريح على صدقها. الذي يتضح أمامنا أن لطلاب الحقائق أحوالا تؤثر على مشاعرهم وتستولي على إحساسهم، وكل حال يطبع صاحبه بطابع وجداني يتناسب قوة وضعفا ورقة ولطفا مع درجة الحال ولطافته، لذا فإنه عندما يكون الصوفي غارقا في عنفوان وجدته، أو سكرات حبه، جذبات شهوده، واصطلام مكاشفاته، فأكثر ما يصير في حالة الغلبة أو المحق. وإذا غلبت عليه الواردات فقد لا يستطيع معها انتقاء اللفظ، ولا يتخير العبارة أو الإشارة، لأن هذا العبد قد استولى عليه كشفه، وجمعه وقربه، وأصبحت كل قواه مركزة في الوارد الذي طرقها والذي أطاش بذاتها، وأفقدتها وسيلة للتعبير التقليدية... أما في حالة الوجد فالوجود والشعور والعلم والموضوع شيء واحد، والكل حالة واحدة سيطر عليها بارق الكشف، ووحدها خاطر الحق، وفيها تعجز قوة التعبير. وبالتالي فإن الصوفي هنا إما أن يعبر عما يدور في أعماقه تعبيرا لا إراديا الاضطراب والغشبية والهيام والبكاء والصراخ المقصود على مجرد الصوت المزعج، وإما يصمت لا يستطيع تعبيرا ونحسه في الظاهر جامدا، وهو يمر ويتغير في الباطن مر السحاب على حد تعبیر بعضهم، وإذا عادوا من غيبتهم، وفاقوا من وجدهم، أخبرونا أن التعبير عن هذه الدرجات والمقامات كما هو حقه غير ممكن، لأن العبارات إنما وضعت للمعاني التي وصل إليها فهم أهل اللغات، وأما المعاني التي لا يصل إليها، إلا غائب عن ذاته فضلا عن بدنه، فليس يمكن أن يوضع لها ألفاظا عن أن يعبر عنها بألفاظ²⁹. فإن الصوفي يعيشها محترقا بحر نارها، أو بزمهرير بردها، فلا يسعه عند ذاك إلا الصمت أو الدهشة³⁰. أو أن المعاني غاية في اللطافة بحيث يصعب التعبير عنها، فاللطيفة كما عرفها المتصوفة: اللطيفة إشارة

²⁶ - حميدي خيسي، مقالات في الأدب والفلسفة والتصوف، ص: 84.

²⁷ - أمين يوسف عودة، تأويل الشعر وفلسفته عند الصوفية، ص: 156.

²⁸ - ناجي حسين جودة، المعرفة الصوفية، دار الهادي للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ط1، 2006، ص: 151، 152.

²⁹ - عبد الله الشاذلي، التطور والملاحم (موسوعة التصوف الإسلامي)، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 2006، ص: 173، 174.

³⁰ - أمين يوسف عودة، تأويل الشعر وفلسفته عند الصوفية، ص: 156.

تلوح في الفهم، وتلمع في الذهن، ولا تسعها العبارة لدقة معناها³¹. وقد الإمام القشيري: اعلم أن من المعلوم أن كل طائفة من العلماء لهم ألفاظ يستعملونها انفردوا بها عمن سواهم وتواطأوا عليها لأغراض لهم فيها من التقريب الفهم على المخاطبين بها أو تسهيل على تلك الصنعة في الوقوف على معانيهم بإطلاقها، وهذه الطائفة مستعملون ألفاظا فيما بينهم، قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم، والإجمال والستر على من باينهم في طريقتهم، لتكون معاني الفاظهم مستبهمة على الأجانب، غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها، إذ ليست حقائقهم مجموعة بنوع تكلف أو مجلوبة بضرب تصرف، بل هي معان أودعها الله تعالى قلوب قوم واستخلص لحقائقها أسرار قوم³².

خيارات الإكراه: من المسلم به أن الصوفية قد عانوا معاناة شديدة، ولاقوا من العنت ما لاقوا من طرف علماء الرسوم أو أهل الظاهر من علماء وفقهاء، فقد ألّبوا عليهم العامة وأغروا بهم الحكام، واتهموهم بالكفر والزندقة، فعذبوا وسجنوا وقتلوا، وما حدث للحلاج والسهورودي المقتول لا يخفى على أحد. وذلك لأنهم باحوا بأسرارهم لمن لا يعيها ويفهمها. يقول السهروردي في ذلك:

وما السر في الأحرار إلا ودیعة ولكن إذا راق المدام فمن يقوی؟³³

فما كان لهم أن يبوحوا بها، لأن السر لا يباح به، لهذا لجأ الكثير منهم إلى الصمت أو اللجوء إلى استعمال الرمز والإشارة والشطح. وكل هذا هو الغيرة على علوم الحقائق والستر عليها دون رجال الظاهر، حتى لا يقعوا في علماء الطريق خوفا من الزلل وإنكار ما يجهلون، ولما قال أحد المتكلمين لأبي العباس بن عطاء: إنكم اشتققتهم ألفاظا أغربتم بها على السامعين، وما هي إلا ستر لعوار المذهب، قال الآدمي: ما فعلنا ذلك إلا غيرتنا عليه، ولعزته علينا كيلا يشر بها غير طائفتنا³⁴. وقد عبّر ابن الفارض عن هذا الموقف:

وعني بالتلويح يفهم ذائق عني عن التصريح للمتعت

بها لم ييح من لم ييح وفي ال إشارة معنى ما العبارة حدث

³¹ - أبو نصر السراج الطوسي، اللمع، ص: 498.

³² - أبو القاسم عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية، ص: 38.

³³ - رياض شنته جبرال، السهروردي المقتول، مجلة المورد، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، مج: 35، ع: 2، 2008، ص: 101.

³⁴ - عبد الله الشاذلي، التطور والملاح (موسوعة التصوف الإسلامي)، ص: 185..

فهو يعني أن أولي الذوق يفهمون كلامه بالرمز لا بالتصريح، وهم غني بالتلويح عن التصريح، وأن الرجل يريد السلامة لنفسه من شر الغوغاء، لا ييوح بالحقائق التي يدركها بمشاعره، وروحه حتى يمنحه الله السلامة، ويقيه شر المتربصين بهن ومن أن يباح دمه بين الناس، والإشارة تغني عن العبارة³⁵.

ففي منظر الزندقة يتجلى الحق تعالى على الولي بتجل مخصوص، يظهر أثره عليه، بحكم الغلبة. فيزندقه كل من يراه، أو يسمع به، أو يعلمه على تلك الحالة. ومن ثم قال الجنيد: لا يكون الصديق صديقاً حتى يشهد له في حقه سبعون صديقاً، أنه زنديق. فهم يشهدون على ظاهره بما ظهر من حاله. لأن الصديق يعطي الظاهر حكم الظاهر، ويعطي الباطن حكم الباطن، فلا يلتبسون بالباطن على الظاهر، ولا بالظاهر على الباطن. فهم يشهدون أنه زنديقاً ظاهراً، كما يعلمون أنه صديق باطناً، لتحقيقهم بذلك الحال. ومن ثم قيل للفقهاء حسن بن أبي السرور: لو كشفنا للخلق عنك، لرجموك. فقال: ولو كشفت لهم رحمتك لما عبدوك. فقيل له: يا حسن لا تقول ولا نقول.... ومن ثم قال زين العابدين شعراً:

يا رب جوهر علم لو أبوح به لقليل لي أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحلّ رجال مسلمون دمي يرون أقبح ما يأتونه حسناً³⁶

وكان من علامة الصوفي العارف أن يستطيع أن يتحدث عن شرك دون أن تتفوه بنبت شفة، فقد حدث بينهما تواصل دون كلام أو نطق، وهذه سمة لا تجدها عند غيرهم. وهذا عبر عنه الجنيد: سمعت محمد بن الحسن البغدادي، يقول سمعت الجنيد-سئل من العارف؟. يقول: من نطق عن شرك وأنت ساكت³⁷.

ومأساة الحلاج ما زالت حاضرة حتى الآن، بكل أبعادها وآثارها وآلامها، فالحلاج تحمل عبء دعوته، وجاهر بها، وأعلن عنها، وهذا ما ألب الصديق قبل العدو فقد جاء في أخبار الحلاج:.. ويعود الحلاج من مكة وقد تعمقت تجربته... ويبدأ والله أعلم في الدعوة جهاراً لما يعتقد... مما أثار على ما يبدو تحفظ الصوفية عموماً وشيخهم الجنيد خصوصاً... فهؤلاء كانوا في حينه، ويتوقعون كثيراً من اطلاع الناس على أسرارهم خشية وقوعها تحت طائلة فقهاء الشريعة من ناحية... وطائلة الدولة التي كانت تعاني من الزنج من ناحية أخرى... فكانت خصومة حلاجنا مع رفاقه القدامى، وكما عبر ببلاغة مرارة قائلاً أن:

³⁵ - محمد كعوان، التأويل وخطاب الرمز، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2010، ص: 150.

³⁶ - عبد الكريم الجيلي، المناظر الإلهية، تح: عاصم إبراهيم الكياني، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 2004، ص: 48.

³⁷ - أبو عبد الله السلمي، طبقات الصوفية، تح: نور الدين شريعة، دار الكتاب العربي بمصر، ط1، 1953، ص: 157.

من سارروه فأبدى كلما ستروا فلم يراع اتصالا كان غشاشا
 إذا النفوس أذاعت سر ما علمت فكل ما حملت من عقلها حاشا
 من لم يصن سر مولاه وسيده لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا³⁸

وقد صرح في كتابه الطواسين، أنه على مذهبه وطريقته، ولن يحيد عنها قيد شعرة: (إن لم تعرفوه، فاعرفوا آثاره، وأنا ذلك الأثر، وأنا الحق، لأني ما زلت أبدا بالحق حقا، وإن قتلت، أو صلبت، أو قطعت يداي ورجلاي، ما رجعت عن دعواي)³⁹. وكان يخاطب الناس (أنا الحق)، وكان أيضا يقال أنه أقام بيته كعبة مصغرة، وفي الليل كان يصلي عند القبور (قبر ابن حنبل)، وفي النهار كان يلقي على قارعة الطريق في بغداد بأقوال غريبة، فكان يصيح في الأسواق وهو في حال من النشوة والطرب: يا أهل الإسلام أغيثوني! فليس يتركني ونفسي فأنس بها، وليس يأخذني من نفسي فأستريح منها، وهذا دليل لا أطيعه. ولما عاد الحلاج هذه المرة إلى بغداد صرح برغبته في أن يموت:

اقتلوني يا ثقائي إن قتلي حياتي
 ومماتي في حياتي وحياتي في مماتي
 آن عندي محو ذاتي من أجل المكرمات⁴⁰

وبذلك تطوى صفحة الحلاج بعد مقتله، لكنها طويت من أجل أن تبقى، لا على أن تمحي، على امتداد الزمن. لقد اتخذ الصمت عند الصوفية أبعادا كثيرة: دينية، وخلقية، وفكرية، وفلسفية، بلاغية. فالصمت يحمل دلالات ثرية ومتنوعة وعميقة، عمق التجربة الصوفية ذاتها، فالصمت لا يعني بتاتا غياب المعنى، فهو يوحى بالرضى والغضب، كما يوحى بالرفض والقبول، وقد يوحى بأشياء أخرى لا يستطيع الكلام الصريح أن يعبر عنها، وخاصة عند أرباب الأحوال والمقامات. وذلك ضمن سياقات مختلفة. وإن كان الصوفية لا قوا عنتا وقسوة، وتعرضوا لإكراهات عديدة، وإبعاد مقصود من طرف إخوانهم الصوفية وأهل الشريعة وبعض الفرق الإسلامية ورجال السياسة وغيرهم، فمنهم من التزم الصمت لدواع ذكرناها سابقا، ومنهم من جاهر رغم الإكراهات. مع ذلك لا يغيب عن أذهاننا أن الكثير من الصوفية كانوا أدباء وشعراء عدوا من فرسان الكلام البليغ العميق،

³⁸ - علي بن أنجب الساعي البغدادي، أخبار الحلاج، تح: موفق فوزي الجبر، دار الطليعة الجديدة، دمشق - سورية، ط2، 1997، ص: 27.

³⁹ - المصدر نفسه ص: 42.

⁴⁰ - المصدر نفسه، ص: 40.

واستطاع الخطاب الصوفي أن يجد له مكانا في الخطاب الأدبي، كنص له خصوصياته، وثورته، وغموضه لاعتماده على الرمز والإشارة والصمت، فكان نصا مفتوحا على قراءات متعددة، مفتوحا على مختلف التأويلات، التي يؤكد فعلا أنه خطاب يحمل أبعادا جمالية لا تجدها في غيرها.

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن عربي، فصوص الحكم، تع: أبو العلا عفيفي، انتشارات الزهراء، إيران، 1370هـ.
- ابن منظور، لسان العرب، ، تع: أمين محمد عبد الوهاب وآخر، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، ط3، 1999.
- أبو عبد الله السلمي، طبقات الصوفية، تع: نور الدين شريعة، دار الكتاب العربي بمصر، ط1، 1953.
- أبو نصر السراج الطوسي، اللمع، تع: محمد أديب الجاذر، دار الفتح للدراسات والنشر، ط1، 2016.
- الجاحظ، البيان والتبيين، تع: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة- مصر، ط2، (دت).
- القشيري، الرسالة القشيرية، دار السلامة للطباعة والنشر والترجمة، القاهرة- مصر، ط5، 2014.
- المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، موسوعة التصوف الإسلامي، القاهرة، دار الكتب المصرية.
- النّقري، لمواقف والمخاطبات، تع: آرثر أربري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985.
- أمين يوسف عودة، تأويل الشعر وفلسفته عند الصوفية، عالم الكتب الحديث، إربد، ط1، 2008.
- حميدي خميسي، مقالات في الأدب والفلسفة والتصوف، ، دار الحمكة، الجزائر، 2005.
- رياض شنته جبرال، السهروردي المقتول، مجلة المورد، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، مج:35، ع: 2، 2008.
- سيزا قاسم، عن الصمت والأدب، مجلة فصول، العددان: 81، 82، ربيع، صيف، 2012.
- عبد الحكيم حسان، التصوف في الشعر العربي الإسلامي، دار العرب للدراسات والنشر والترجمة، 2010.
- عبد الكريم الجيلي، المناظر الإلهية، ، تع: عاصم إبراهيم الكياني، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 2004.
- عبد الله الشاذلي، التطور والملاحم (موسوعة التصوف الإسلامي)، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 2006.
- علي بن أنجب الساعي البغدادي، أخبار الحلاج، ، تع: موفق فوزي الجبر، دار الطليعة الجديدة، دمشق- سورية، ط2، 1997.
- محمد كعوان، التأويل وخطاب الرمز، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2010.

- ناجي حسين جودة، المعرفة الصوفية ، دار الهادي للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، ط1، 2006.
- ناجي حسين جودة، المعرفة الصوفية، دار الهادي للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، ط1، 2006.
- وفاق سليطين، الشعر والتصوف، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية- سورية، ط1، 2013.
- يوسف سامي اليوسف، مقدمة للنفري، دار الينايع، دمشق، 1997.